FTDES
المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية
المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية
المرصد الاجتماعي التونسي

كراسات المنتدى عدد 4

في تدبير أزمة «كوفيد 19» في تونس

سياسات الدولة والفئات الأكثر تضرّرا

تنسيق: سفيان جاب الله

سبتمبر 2020

***

المقالات المنشورة تعبر عن آراء أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي **كراسات المنتدى**

***

حقوق التأليف محفوظة للمنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية

الطباعة : المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية- سبتمبر 2020
ISSN : 2724-6833

المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية

المرصد الاجتماعي التونسي

كراسات المنتدى عدد 4

في تدبير أزمة «كوفيد 19» في تونس

سياسات الدولة والفئات الأكثر تضرُّرا

تنسيق: سفيان جاب الله

سبتمبر 2020

الإدارة والتحرير:
المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية 47 شارع فرحات حشاد، 1001، تونس

المديـر المسؤول:
علاء الطـــالبي

أعضاء لجنة التحرير:
حياة عمامو، صلاح الدين بن فرج، رياض بن خليفة، نزار بن صالح،
ماهر حنين، سفيان جاب الله، مالك كفيف، محمد سليم بن يوسف

التدقيق اللغوي:
وليد فيّـــــالة

صورة الغـــلاف:
حســام سعــاف

طبـــــــاعة:
الطباعة المتضامنة

المحتوى

سفيان جاب الله

تقديم عام للكُرّاس 07

المحور الأولّ: في القراءات المُمكنة لأداء الدولة زمن الجائحة..... 22

منـــــال دربالي

لمحة تاريخية عن الأوبئة في تونس. 23

حسـام سعّــاف

هوموستازية المُجتمع المختل أو في تضاعف إقصاء الهامش زمن الحدث الوبائي: قراءة أنثروبولوجية. 36

آية بوصحيــح

تعميق اللامساواة الاقتصادية والاجتماعية بين الفئات المجتمعية في زمن الوباء: (مقاربة قانونية). 49

يوسف موسى

الأداء الخطابي لرئيس الجمهورية في السياق الوبائي: كيف خاطب الفئات الأكثر تضررا؟.. 60

المحور الثاني: بورتريه الفئات السوسيو-مهنيّة الأكثر تضرُّرًا من الحجر الصحّي..... 76

رضـــا كــارم

النّساء العاملات بحقول الاستلاب زمن الكورونا: ذكوريّة الفضاء، والهيمنة المزدوجة. 77

هيثم مدوري

عمّال البناء: الواقع، الحَجْر والإجراءات. قراءة في آثار الجائحة وتفكيك الأزمة. 94

أمل الهـــازل

عاملات النظافة في المُستشفيات زمن الجائحة: الفاعلات في المعركة من أجل الحياة..... 111

منتصر النغموشي

بورتريهات عاملي المقاهي والحانات في زمن الكورونا: من أجل رسم صورة للهشاشة الاجتماعية..... 126

فهمـــي البلطـي

طبيب في مواجهة الكوفيد 19: كيف عاش الأطبّاء الموجة الأولى للوباء؟. 145

محمد سليم بن يوسف

أجراء القطاع الخاص والمسألة الاجتماعية في فترة الحجر الصحي: مجالات الفعل الجماعي والتسييس.. 163

المحور الثالث: في رصد تحولّ/تغيّر كميّ ونوعي لظواهر اجتماعيّة إبان الحجر الصحّي 180

خـــالد طبـــابي

ديناميكيات الهجرة غير النظامية في تونس: محاولة في قراءة المشهد الهجري زمن الوباء.... 181

حـــازم شيخاوي

في فهم العنف المسلط على النساء داخل الفضاءات زمن الكورونا.. 202

أحمد الســـاسي

كيف عاشت الأحياء الشعبيّة جائحة الكوفيد 19؟ الكبّاريّة نموذجا..... 214

المحور الثاني:

بورتريه الفئات السوسيو- مهنيّة الأكثر تضرّرًا من الحجر الصحّي

عمّـــال البنـــاء: الواقــع، الحَجْر والإجراءات قراءة في آثـــار الجــائحة وتفكيك الأزمة

مدوري هيثم

ملخص

مع كل أزمة، تعود الفوارق والمشاكل الاجتماعية الاقتصادية لتطفو على السطح مجددا، حيث أدت الجائحة "كوفيد-19" وإعلان الحجر الصحي العام في تونس إلى انقطاع نشاط كثير من العمال في أغلب المجالات، وهو ما أنتج تدهورا في أوضاعهم الاجتماعية وعودة قضاياهم وأحوالهم إلى طاولة النقاش.

في مسألة هؤلاء العمال المتضررين، تخصَّص هذه الورقة البحثية، في إطار هذا الكراس المشترك، لدراسة آثار التدابير الوقائية الحكومية على عمال البناء قبل الجائحة وخلالها. وذلك باستعمال أدوات البحث السيكولوجي كالمقابلات المباشرة والتحليل والمكتسبات النظرية مع الاستدلال بما جاء في الصحف الإلكترونية نظرا لإلزامية التباعد ومنع التنقل. كما سنتطرق إلى الإجراءات الحكومية المتخذة ومدى ملاءمتها وجدواها، وهل أنّ المساعدات المالية والاجتماعية ساهمت في التخفيف من وطأة الأزمة، دون أن ننسى تناول المعايير الحكومية في التعامل مع هذه المجموعة الواسعة في إطار طبقتها الاجتماعية التي تحتويها.

Abstract:

Social & economic problems return usually to show up with every crisis to highlight the real cracks that exist hiddenly in our social building. In fact, those cracks are not hidden but ignored till the crisis come to bubble them. The aimed purpose of this study is to highlight the life conditions of construction workers andbuilders before and during the epidemic “covid-19”. Moreover, the governmental’s actions will be discussed in term of impact and effectiveness. Precisely, an social analysis is presented in this paper basing on direct interviews that have been handled using secological and ethnographical tools and methods.

" كنت في شدة الجوع الهائلة، فتناولت قطعة خشب من الطريق ألوكها في فمي. وقد أفادتني بالفعل، فكيف أني لم أفكر فيها من قبل"

رواية الجوع لـ كنوت هامسون

يعتبر ما وصل إليه علماء الآثار والحفريات في موقع "غوبكلي تبه" بالأناضول دليلا على أن الإنسان الأول قد اعتمد البناء كأول المهن الحضارية، بعد الصيد للبقاء، في انتقاله من مرحلة الترحال إلى مرحلة الزراعة مع بداية تشكل المجتمعات الأولى في بلاد الرافدين[1]. منذ ذلك الحين تعتبر العمارة والإنشاءات أول ألوان الحضارة فهي أول ما يجذب الباحثين إليها. ولكن حضارة الإنسان وإن خطت في عقول المهندسين، فإنها بنيت وشيّدت بسواعد البنّائين والعمّال الكادحين الذين ترى أعمالهم في كل حضارة ماثلة، يبنون أهرام الفراعنة ومعابد أثينا ومسارح روما وقصور قرطبة. كل هذا في زمن السّلم، أما في زمن الحرب فهم وقودها، مع زملائهم "ملح الأرض"، وأعمالهم هدفها (احتلال المباني التي بنوها والمدن). ولهم في زمن الأوبئة أيضا نصيب من الشقاء، فقد قسّمهم "فوكو"، مع غيرهم من الفقراء، إلى فقراء أصحاء وفقراء مرضى[2]، حيث الاختلاف هنا ليس في درجة البأس بل القدرة على معايشته، حيث صار التهديد لصحة البسطاء "خدَّامة الحزام" تهديدا وجوديا باعتبار أن صحتهم هي مصدر رزقهم الوحيد. ومن هنا، نمضي في هذه الورقة البحثية إلى تناول أثر الوباء، الذي حل بالعالم مؤخّرا، على حياة عمّال البناء، كجزء من الطيف الأكثر تضررا من الوباء و/أو من تدابير الحكومية. تندرج هذه الورقة ضمن كراس يعده المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية لتسليط الضوء على أضرار الجائحة على الفئات المقصية.

في سياق متصل قبل أن نمر إلى تناول موضوع الورقة، سنعمد أولا لسرد الأحداث الموجبة له كتأطير مكاني وزماني وسببي مع تمثيل مقارن لتسليط الضوء على الفوارق الاجتماعية في أبسط بديهيات الحياة. فقد أدى مؤخرا إعلان منظمة الصحة العالمية وباء "كوفيد-19" جائحة عالمية إلى شروع العديد من بلدان العالم، ومن بينها تونس، إلى فرض إجراءات وقائية كالحجر الصحي العام وإيقاف كل النشاطات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. ومع مكوث الناس في منازلهم وحالة الشلل العام وأخبار الضحايا والإصابات، عادت العديد من الروايات والأعمال التي تناولت أحداث مشابهة إلى الذاكرة المجتمعية ومن بينها روايتا "الطاعون" لألبير كامي و"العمى" لخوسيه ساراماغو. كما أن تزامن الحجر مع صدور الفيلم التايواني "The platform" ساهم في تسليط الضوء على الطبقية الاجتماعية والصيرورة التاريخية. وباعتبار الظروف الحالية، فقد بادر الكثيرون، إما شغفا وفضولا

[1] Yuval Noah Harari, Devine Intervention, Homa sapiens : a brief history of humankind, United kingdom, Cloth edition published 2014, p80

[2] كمال الرياحي، تهريب الأجساد الثقيلة من "الاعتقال الكبير"، موقع إلترا صوت، مقال بتاريخ 12 أفريل 2020.

أو مللا، إلى شراء هذه الروايات ومطالعتها إلكترونيا، ومشاهدة هذا الفيلم وغيره عبر الإنترنات من الشاشات الصغيرة.

يبدو الأمر لوهلة شاعريا ملهما، لولا أن الأبطال الواقعيين، الذين تجسدهم هذه الأعمال وهم جوهرها، لم يسمعوا على الأغلب بتاتا بهاته العناوين، ناهيك عن مشاهدتها وتناول ما تطرحه. فمن أين للمهمشين قسريا، عمالا وفلاحين، استثنتهم الدولة من اعتباراتها، أن يحصلوا على بطاقة بنكية للقيام بالشراءات الإلكترونية المفترضة باعتبار منع التنقل، والحال أن البطاقة الوحيدة التي يملكونها هي "كارني الكريدي"، ذلك الذي يسجلون فيه دينهم للتجار. هذا على افتراض أن لهم بالا لهذا الرفاه المعرفي والثقافي، رفاه التمدد المطمئن على فراش ومطالعة الروايات ومشاهدة الأفلام.

فقد بادرت الحكومة التونسية إلى إعلان الحجر الصحي بعد توصيات من منظمة الصحة العالمية وتعليمات مجلس مجابهة الكورونا الذي أحدث للغرض، وأيضا تحت مطلب شعبي أطلقه العديد من المواطنين عبر حملة "شد دارك". للوهلة الأولى نرى أن الدولة (أو دولة فيبر[3]) صادرت حق حرية التنقل وحق العمل المكفولين دستوريا بدعوى تفويض شعبي عام من المواطنين قصد "الحماية الوقائية الجماعية العامة"، أو ما يعبر عنه بـ"مصلحة الناس الكل". فمن هم هؤلاء "الناس الكل"؟؟ ولكن قبل، هل هي فعلا "مصلحة" الناس الكل؟

مدخل إشكالي:

إذا فقد أحيلت البلاد بالإكراه إلى "البطالة التقنية" بأمر حكومي أسنده آخر رئاسي بتاريخ 20 مارس 2020. وبقراءة سريعة لتواتر النتائج إثر ذلك، نرى المبادرة المبكرة والمشروطة لاتحاد النقابات ومنظمة الأعراف للتنصيص على مؤازرة جهود الحكومة في مجابهة الجائحة. حيث اشترطت هذه المنظمات العريقة مصلحة وصحّة منظوريها من موظفين عموميين صحتهم فوق كل اعتبار. كما بادرت الحكومة، عبر رئيسها، إلى تطمين الجميع أن الدولة ستقوم بدورها الاجتماعي ولن تتخلّى عن أحد. فمنح الاتحاد وعدا باستمرار تحويل مرتبات الموظفين، وقطعت منظمة الأعراف وعدا لأرباب الأعمال بعطايا تضبط في الإبان. وأخيرا منّت الحكومة على العائلات "المعوزة"، والمسجلين بسجلاتها، بمساعدات اجتماعية ظرفية، وبإعانات مالية لمن قطعت الجائحة رزقهم.

لوهلة تبدو السماء صافية ونكاد نفقد المغزى من هذه السطور! ولكن غيمة قاتمة تأبى إلا أن تشوب زرقة سماء الحكومة: ماذا عن أولئك الذين لم تضمّهم دفاترها؟ الآخرون، المغيبون في تاريخ تونس

[3] أستعمل هنا مفهوم دولة "فيبر"، للتدليل على مفهوم الفيلسوف الألماني "ماكس فيبر" الذي شرع في كتابه "رجل العلم و السياسة" للدولة احتكار العنف المادي لفرض النظام و السلطة بموجب العقد الاجتماعي. ذكر هذا المفهوم هنا للتدليل غلى مصادرة الدولة لحق التنقل إجباريا مع التهديد باستعمال ازدواجية "الصحة مقابل الحرية"

الاجتماعي، الكادحون في القطاع "الموازي"[4]؟ أولئك الذين أسقطوا عمدا عبر العصور من حسابات الحكومات المتعاقبة على البلاد، وتركوا هذه المرة أيضا وجها لوجه مع فيروس من شيمه العدل بين ضحاياه.

يستقطب الاقتصاد الموازي أو غير المنظم تقريبا 50% من الناشطين في البلاد، حسب دراسة للمركز التونسي للدراسات الإستراتيجية[5]، مما يعني تقريبا 1.5 مليون ناشط وناشطة. ويستحوذ قطاع البناء والأشغال العامة على نصيب الأسد من هذه الثروة البشرية الثمينة قيمة والقليلة تأجيرا، أين يشتغل تقريبا 36% من إجمالي العمال (حوالي نصف مليون بين مباشر وغير مباشر[6]) سوادهم الأعظم لم يتجاوزوا التعليم الابتدائي. بطبيعة الحال، السوق الموازي لا يوفر تغطية صحية/اجتماعية، ناهيك عن أبسط حقوق الشغل كعقد التشغيل.

فكيف أثرت الجائحة العالمية على هذه الفئة من الشعب؟ وما مدى مردودية الإجراءات المتخذة من قبل الحكومة في تهوين الضرر؟ وما هي العقبات والصعوبات التي عاشتها الفئة المستهدفة أثناء فرض الإجراءات الوقائية للحجر الشامل؟ لكن قبل ذلك، هل التزمت هذه الفئات بالحجر، هذا إن توفرت لها الامتيازات اللازمة لذلك أصلا؟.

المقاربة المنهجية:

يرتكز بناء هذه الورقة أساسا على شهادات للفئة المعنية من خلال الاتصال ببعض العمال، الذين أحيلوا على البطالة الإجبارية، استجابة للوازم المنهج الكيفي[7] الذي نعتمده لعدم توفر الأرقام والدراسات في هذا السياق من جهة، كما أنّ منع التنقل حال دون استعمال المنهج الإتنوغرافي من جهة أخرى. لذلك سيقع الاتصال كخطوة أولى بالمستهدفين عبر وسائل الاتّصال التّكنولوجية لتوجيه أسئلة مؤطرة ونصف موجّهة لاستخراج الأدلّة. الخطوة ثانية هي تحليل هذه الشّهادات عبر المكتسبات النّظريّة من خلال الدّراسات الاجتماعيّة المناسبة، ومقاربتها نظريّا وذلك بالاستناد إلى مقاربات سوسيولوجيّة وأنتروبولوجيّة، إضافة للمراوحة مع أعمال أدبّية وفلسفيّة.

[4] حسب "فيليب بارتيليمي" يشمل الاقتصاد الموازي في تعريفه الواسع القيام بأعمال قانونية بطرق غير قانونية. من بين هذه الطرق الغير قانونية نجد تشغيل عمال البناء في شركات المقاولات بدون عقود ولا تغطية اجتماعية. تاريخ الاطلاع: 07 ماي 2020.
رابط المقال: http://ses.ens-lyon.fr/articles/economie-souterraine-42368

[5] دراسة أجراها حسب دراسة للمركز التونسي للدراسات الإستراتيجية بالتعاون مع مؤسسة "فرانس ستراتيجي" صدرت في فيفري2019. تاريخ الاطلاع: 08 ماي 2020

[6] التعداد الوطني للسكان 2014 : http://www.social.gov.tn/fileadmin/user1/doc/statistique2014.pdf.

[7] المنهج الكيفي: أو المقاربة الكيفية، وهي طريقة يعتمدها الباحثون في علم الاجتماع في فهم الواقع عبر تمثلات الفاعلين ومقولاتهم في بيئتهم.

في مرحلة أولى سنعمل على تحديد خصائص عمّال البناء كفئة سوسيو-مهنيّة، حيث سنحاول إنتاج مسودّة فهم لكيفية عيش هؤلاء، كعمّال بناء ممنوعين من البناء، قبل وإبان أزمة الوباء بالاعتماد على تمثّلهم وتعريفهم لوضعيّاتهم.

في مرحلة ثانية سنقوم برصد التّأثير الإعلامي والخطاب الرسمي على عمّال البناء بالذّكر والدّرس من منطلق أنه قد وقع تهويل الجائحة في بدايتها باستهتار عبر عاصفة إعلاميّة كما أشار لذلك الفيلسوف الفرنسي "ميشال أونفراي"[8]، مع النظر إلى مدى اتخاذهم للتّدابير الوقائيّة كالتّباعد الجسدي والحجر الصّحي.

في مرحلة ثالثة وأخيرة، سنبحث مدى تأثير الجائحة على الأحوال الاقتصاديّة والاجتماعيّة لأصحاب هذه المهنة مع تسليط الضوء على مساهمة المساعدات الحكومية في التخفيف من وطأة الحجر عليهم مع التّدليل والنّظر في فاعلية وجدوى طرق توزيع الإعانات الماليّة والمساعدات منذ بداية الحجر وحتى تاريخ كتابة هذه السطور.

"هذا المنفى الداخلي الذي يفصل ملايين الرجال عن بلادهم"- ألبير كامي.

يقول أيضا ألبير كامي في كراس مذكراته "لقد فضلت دائما أن نشهد، إذا استطعت القول، بعد أن نتعذب"[9]، حيث يرى أن يترك الفضاء ويهيأ للمعنيين ممن قست عليهم الحياة حتى يعبروا كما يرتؤون، لا أن يتكلم على لسانهم الكتاب والباحثون مما يوحي بالاستيلاء على معاناتهم أيضا فيصوغونها في نصوصهم على شكل هيمنة وصائية فوقية. لكن واجب الباحثين الفاعلين[10] في المجال السوسيولوجي هو أن يكونوا كفرسان التنوير[11] في المجال الأدبي، حيث يؤتمنون على نقل معاناة المهمشين وتقريبها لبقية المجتمع بالاعتماد على رأسمال معرفي وتكوين أكاديمي سعيا لكسر الحصار/الهيمنة/التهميش الذي تعاني منه الفئات المهمشة.

[8] نشر "ميشال أونفراي" مقالا بعنوان "Qu'est-ce qu'un chef ?"، في موقعه الخاص بتاريخ 08 أفريل 2020، حيث برر فيه الصخب الإعلامي الذي رافق اكتشاف الفيروس واعتبر أنه استثمار من كارتيلات صناعة الدواء عبر الشبكات الإعلامية حتى تستفيد من ترويج الأدوية ظنا منها بحتمية إيجاد لقاح حينها.

[9] Albert camus, Œuvres complètes, Gallimard.

[10] موضوع ورقة بحث لأمين الحسيني في كراس عدد2 : "سوسيولوجيا الفعل الجماعي في تونس منذ 14 جانفي 2011 ". إصدار المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية. جويلية 2019. ص 9-11.

[11] عبارة لبوشكين يصف بها المترجمين. رابط لمصدر: https://arabic.sputniknews.com/art/201510011015798602/ تاريخ الاطلاع: 08 ماي 2020.

طرح تقريبي لحياة وظروف عمال البناء:

قبل المضي قدما في الاستقصاء والتحليل، وجب أولا وضع رسم/بورتريه تقريبي لهذه الفئة: الانتماء الطبقي/ الفئوي، الحال الاجتماعي، توزعهم الجغرافي وذلك باستعمال سلسلة المحادثات مع المستجوبين في هذا البحث (عبر الهاتف ومسنجر).

عمّال البناء كفئة سوسيو-مهنية هشة:

كان أول الأسئلة التي وجّهت للمستجوبين هي أن يعرفوا فئتهم أو المجموعة المهنية التي ينتمون إليها في محاولة منّا لحصرها حتى نخصّها بالبحث والتّحليل لاحقا، وحتى لا يقع تعويمها ضمن طبقة اجتماعية شاسعة ومتباينة الملامح والخصائص. في الشهادة التالية، نجد تمثّلا وتعريفا للوضعية والمعيش من أحد المستجوبين والتي اخترناها لتماهيها مع تمثّلات أغلب المستجوبين:

> "خّدامةْ المرمّةْ هيْ الناسْ لي دايرةْ بالخلطةْ ويديها نهارْ الكلْ بالسيمانْ بينْ السطلْ والملعقةْ والبالةْ، و لي البقية إليْ نهارْ الكلْ ماشينْ جايينْ في وسطْ الشانطي، جماعةْ الستيلو، بالاسمْ متسمينْ على المرمةْ. ناس شايخة".
>
> **حمزة، 22 سنة، القيروان**

إذا ينقسم عمّال البناء هرميا إلى عدة أطياف مختلفة:

- العمال اليوميون: أو "خدامة الحزام"، يعتبرون بمثابة مساعدي البنائين أيضا، وتوكل إليهم معظم الأعمال الجسمانية، كما تنسب إليهم بعض الأعمال التقنية تدريجيا بالتقادم إلى أن يصبحوا بنائين.
- البناؤون: يسّمون أيضا "سطاوات"، هم النواة الأولى والمكونة للفئة، ويتمتعون بخبرة ومعرفة تقنية بالعمل، ويستطيعون المبادرة إلى العمل الحر بعد اكتساب رأسمال اجتماعي، ويصطحبون مساعديهم من العمّال اليوميين.
- تقنيّو البناء: خرّيجو المعاهد المهنية والتكنولوجية، يشتغلون عادة في خطة مراقب أشغال ويملكون جانبا علميا تقنيا. هم قلة لا يستطيعون العمل إلا ضمن الحظائر أو بعث مناولات صغيرة بعد اكتساب رأسمال ثقافي اجتماعي.

هناك أيضا أطياف ومكوّنات أخرى داخل حظائر البناء "الشوانط أو les chantiers"، كتقنيّي الكهرباء وشبكات المياه والصرف والنّجارة، والمقاولين والسواق... وإن كانوا في نفس القطاع إلا أنهم لا ينتمون، -حسب ما لمسناه من المبحوثين-، إلى نفس الفئة موضوع البحث لأن أفرادها يعتبرون أولئك من المحظوظين لامتلاكهم صنعة مريحة نسبيا بالمقارنة بهم. ولذلك، فمن الواضح أنه من

الإجحاف تناولهم ضمن نفس الفئة للأسباب المذكورة حتى لا نقع في تغييب متعمد أو تعميم لوجهة نظر الخاضعين للهيمنة كما حذر من ذلك الباحث ماهر حنين[12]، فسنخصص اهتمامنا فيما يلي بالمجموعتين الأوليين.

التوزع و/أو الانتماء الجغرافي:

بالنسبة للتوزّع الجغرافي، ينتمي عمّال البناء عموما إلى المناطق "الطاردة/المنفرة/النائية" التي لا تتوفر فيها سبل الحياة[13] وهي عادة ولايات الداخل والحزام الهامشي للعاصمة. يعيش عادة هؤلاء اللامرئيون اجتماعيا "les invisibles" بمحاذاة مواقع عملهم بالأحياء الجديدة التي ينشئونها في إطار توسعات المدن الكبرى، الساحلية والعاصمة، التي تشهد حركية اقتصادية واجتماعية وتكثر فيها الاستثمارات العقارية والسكنية. ومن المتناقضات التي تروى بين أصحاب هذه الأعمال[14] أن الأحياء التي تسمى لاحقا "راقية"، مثل أحياء الـAFH[15]، يسكنها هؤلاء أوّلا أثناء فترة إنشائها (يعيشون عموما أين يعملون في مواقع البناء ربحا لمعلوم الكراء)، ثم يغادرونها بعد إنهائها لأصحابها الذين يستنكرون رؤيتهم فيها مستقبلا لأنهم لا يتماهون مع المشهد العام الذي صارت إليه هذه الأحياء. يرتحل العمّال "ولاد الشانتي" كالعادة مع العمل من مدينة إلى أخرى في نمط حياتي هش يشبه الـ précarité الذي تحدثت عنه بيتلر[16]. وعلى عكس المقصيين الآخرين، يختار هؤلاء أن يكونوا بلا وجوه، les sans-visages[17]، حيث يتخذون مبدأ حياتيا يتبنونه دائما "عاشر متوالفش"، في تذكير لأنفسهم بأن لا يرتبطوا وجدانيا بالمكان والأشخاص فهم مفارقون، فيتخذون "العشرة" للعيش المشترك وينكرون "الألفة" لما قد تخلفه من مرارة في كل مرة يألفون ثم يرحلون، فيختصرون ارتباطهم الاجتماعي أثناء فترة العمل بصداقات عميقة مع زملائهم باعتبار غربتهم في المدن كل مرة.

معدل الأجوروالطبقة الاجتماعية:

تعتبر الجامعة العامة للبناء والخشب "FGBB" هي الممثّل النقابي لعمّال هذا المجال. أنكر المستجوبون في هذا البحث علمهم بوجودها، ويرجع ذلك لضعف الصّلة بين النّقابة والعمّال حيث أنّ الأغلبيّة السّاحقة للعمّال ينشطون في إطار العمل الحرّ أو غير المقنّن،

[12] أنظر ماهر حنين – كراس FTDES بعنوان"سوسيولوجيا الهامش في زمن الكورونا"– ص 10

[13] سبل الحياة: بمعنى مقومات الحياة الأساسية اقتصادية واجتماعية كالعمل.

[14] تجربة شخصية: زاولت هذه الأعمال طيلة العطل فترة الدراسة، كما أنتمي اجتماعيا إلي نفس الطبقة، فأعلم ما يدور بين أفراها من نكات و يخالج صدورها من مرارة. (الكاتب)

[15] أحياء الـAFH هي أحياء تقوم بإنشائها الوكالة العقارية للسكنى تكلفة منخفضة نسبيا لفائدة الموظفين. الفئة موضوع هذا البحث غير مشمولة بمثل هذه الامتيازات.

[16] Judith Butler,« vie précaire », Éditions Amsterdam, 2005.

[17] نفس المصدر السابق. و تحدثت"بيتلر" في مقال آخر أن les sans-visages يسعون لفرض ظهور إيتيقي في الفضاء العام قصد إحراج الآخر. رابط المقال: https://www.philomag.com/les-idees/la-vulnerabilite-des-sans-visage-37761

كما أنّ الأرقام الرّسمية الدّقيقة غير متوفّرة، حيث يعتبر هؤلاء ضمن عمال الفلاحة والصناعة، كما تضبط أجورهم بقانون الحد الأدنى للأجور[18]SMIG والذي يحدّد بـ 403 دينار. لكن هذه الرّقم بدا غير واقعي للمستجوبين مما دفعنا لاستجوابهم حول الأجور التّي يتقاضونها فعليّا.

جدول أجور عمال البناء

	داخل الأطر القانونية	خارج الأطر القانونية
الأجر اليومي بالدينار لعامل بناء (مساعد فني) نظام 48 ساعة أسبوعيا	20-17	**30-25**
الأجر اليومي بالدينار لبناء (فني) نظام 48 ساعة أسبوعيا	40-35	**60-50**

المصدر: السؤال المباشر للمستجوبين من قبل المحرر.

إن مؤشرات المعهد الوطني للإحصاء لا تكفي لتحديد الانتماء الطّبقي لهذه الفئة[19]فمؤشر الفقر المادي[20] الأدنى هو 2.8 دينار في اليوم، والمؤشر الأعلى هو 4.7 دينار في اليوم. وبمقارنة هذه المؤشرات مع الأرقام في الجدول، نجد أن هذه الفئة بعيدة جدا عن الفقر. كما أن مواصفات الفقر الإداري[21] الذي تحدده وزارة الشؤون الاجتماعية لا يمكن تطبيقها هنا[22] (سنرى تأثير ذلك لا حقا في تأثيرات الجائحة على هذه الفئة). أغلب الدّراسات الاجتماعية تركّز على تداول معطيات الفئات الفقيرة وتحديد نمط حياتها في حين أن الدّراسات تكون منعدمة حول الطّبقات الأخرى. كما أنّ الحدود بين الطّبقة الفقيرة والمتوّسطة بالخصوص متداخلة جدا وضبابيّة. لكن بالاعتماد على دراسة لرضوان الفيلالي وأنيس بوعبيد[23]، يمكن استنتاج أن هذه الفئة تنتمي إلى "الطبقة الوسطى الدنيا". تعدّ هذه الطبقة طبقة هشّة وتحت تهديد عام مباشر بالفقر والبطالة وخاصة إثر الأزمات الاقتصادية كالجائحة[24].

[18]Article de journal «la presse » nommé «Le gouvernement décide d'augmenter le SMIG de 6.5% ». lien : https://lapresse.tn/5329/le-gouvernement-decide-daugmenter-le-smig-de-65/. Publié le 01/05/19. Consulté le 12/05/2020.

[19] هل هي ضمن الطبقة فقيرة،المتوسطة الدنيا، المتوسطة الوسطى، المتوسطة عليا...؟

[20] الفقر المادي: هو تصنيف يخضع لمقاييس/معايير/مؤشرات تحددها مؤسسات مختصة كالمعهد الوطني للإحصاء...

[21] الفقر الإداري هو تصنيف يخضع لمواصفات أو شروط معدة مسبقا من قبل وزارة الشؤون الاجتماعية

[22]Azzam MAHJOUB, Pandémie COVID 19 en Tunisie, pages 11-13.

[23] Radhouane FILALI, Anis BOUABID, PROFILS ET DÉTERMINANTS SOCIOÉCONOMIQUES DE LA CLASSE MOYENNE EN TUNISIE, Région et Développement n° 44-2016, lien de l'article : https://regionetdeveloppement.univ-tln.fr/wp-content/uploads/5_Filali_Bouabid.pdf

[24]Azzam MAHJOUB, Pandémie COVID 19 en Tunisie, page

في هذا الجزء، قمنا بتحديد الفئة المستهدفة مع تحديد تموقعها الجغرافي، كما قدّمنا قراءة لنمط حيات أفراد هذه الفئة، وفي الأخير سعينا إلى حصر عمال مجال البناء داخل طبقة اجتماعية معينة لفهم أعمق لما يحيط بهم.

تأثير الجائحة والحجر على عمال البناء:

عمال البناء في فترة ما قبل الحجر:

"لو كنت تشعر باشمئزاز من مذاق الطعام الرديء والجوارب الملتصقة والثياب القذرة، فلا بد أنك تملك فكرة عما هو جيد، لا بد أنك تذكر وقتًا ما كانت الأمور مختلفة"[25].هكذا عاب جورج أوريل على المتذّمرين تذمّرهم. وذكّرنا هذا بتذمّر بعض "المترفين" من تأخّر الدولة لإعلان الحجر (رغم أنّه كان باكرا حسب منظمة الصحة العالمية التّي باركت ذلك)، لكن لم يكن هذا حال العمّال كما سنرى فيما يلي.

نتناول هنا الوضع النفسي والمعنوي لعمال البناء منذ تواتر الأخبار عن اكتشاف الفيروس في الصين وإلى غاية إعلان الحجر الصحي العام وبادرنا كما قدمنا مسبقا بالقيام بعدّة اتّصالات مع العاملين بالقطاع.

> سمعنا بيها كيما النّاسْ الكلْ ملّولْ في الشّتاء لكنْ معطيناهاشْ بالْ، بعدْ كيفْ بدات تكثرْ لحكاياتْ، بدينا نتحيّروا شويّ كيما بقيّة الخلقْ، خاصةْ كيفْ ريتهمْ يحكوا على الحجرْ في التّلفزةْ الفايسبوكْ وبداتْ أكا الحملةْ تعْ "شدّ دارك"، ياخي ساهلْ هو شدّانْ الدّارْ أكاكا؟ زيدْ شمّيناها العادة باش تجي في روسنا. المصايبْ كيما هاذي ميخلّصها كانْ الزوّالي. أما هاذاكا ربي شحبْ. كنْ إيهْ و برا خفنا نحبّسوا الخدمةْ يعني؟ يا ولدي الخدمةْ هاذي ما تخدمشْ ما تخلصشْ، تي لوْ تخدمْ وعادي متلقاشْ حقكْ ويقلبوكْ. وحديثْ التلافزْ منعدلوشْ عليهْ، منْ وقتاشْ يهمهم ينا وزيد منْ وقتاشْ حكوا الحقيقةْ ماهمْ ديما يكذبوا كانْ باشْ تبّعهمْ يضيّعوكْ. وزيدْ ملّخرْ همّهمْ كانْ في مصالحهمْ ومصالحْ الناسْ لي كيفهمْ. في بالكْ يهمّهمْ في الّزوالي؟".
>
> **عبد الباسط، 43 سنة، سليانة.**

[25] رود هذا بمقال "تسنيم فهيد" بمجلة "نون بوست" ضمن مقال بعنوان "حين اختار "جورج أورويل" الوقوف على حافة البؤس في باريس ولندن" بتاريخ : 29 سبتمبر 2017 . رابط المقال: https://www.noonpost.com/content/20060

قد تبدو شهادة "عبد الباسط" غريبة ومتهورة إذ نلاحظ فيها ثلاث اعترافات مبطنة: اللامبالاة، الضيم والشعور بتهديد وجودي. وكما يشير دولوز ونيتشه[26] في التحّليل النفسي، سنبتعد عن الدور الوصائي وسنكتفي بما لمسناه في الشهادة بعيدا عن كل هيمنة فوقية.

- الضيم: يعيش هؤلاء العمال خطر الخوف الدائم نتيجة لظروف عملهم أين تنعدم وسائل الحماية. فيتم التصالح بـ"التقادم" مع فكرة الخطر المحدق حتى تصير نمطا معيشيا، ويمكن لمس هذا من خلال تعبير " زيد شميناها كالعادة باش تجي في روسنا. المصايب كيما هاذي ميخلصها كان الزوالي". كما أن هناك تسليما بالقضاء والقدر يعززه إيمان ووازع ديني يتسلح به هؤلاء في مواجهة خطر "الآخر". من جهة أخرى، يعتري هذه الفئة شعور ضمني بالخضوع للهيمنة بسبب إقصائها عن المشهد العام وإبعادها عن المشاركة في صناعة الرأي مع غيرها من المهمشين فيولد هذا شعورا باللامبالاة.
- اللامبالاة: انطلاقا من الانسلاخ القسري في البداية ثم الطوعي لاحقا، والذي يعيشه الهامشيون في المشهد العام، يلجأ أفراد هذا الجزء من البروليتاريا لصناعة وصفهم وكلماتهم الخاصة لمعيشتهم اليومية خارج المتداول الإعلامي بما يمثله من سلطة، وهو ما سماه بورديو[27] "الطبقة المشيأة" في إشارة للفلاحين الرازحين تحت الهيمنة، فيلجؤون لتكوين رأس مال ثقافي جماعي بعيد عن الرأس المال الثقافي المهيمن الذي سبق أن أقصاهم. كما يمكن تفسير ذلك بغياب التصادي/الصدى/الرنينla résonnance بين الخطاب الرسمي واللّامبالين. ومنه يمكن تحسّس اللّااعتراف بسلطة الدولة في ظل تواصل سياسية الهيمنة والتّجاهل والإقصاء.[28]
- الشعور بتهديد وجودي: الضيم واللامبالاة ما هي إلا نتائج مباشرة للشعور بالتهديد الوجودي وعدم القدرة على مواجهته (الضيم)، ومن ثم المرور إلى القبول بالواقع في مرحلة أولى ثم تجاهله في مرحلة ثانية (اللامبالاة)، فيغدو العمل في هذه الحالة أكثر من مجرد دور في النشاط الاجتماعي أو مهنة في إطار الدورة الاقتصادية[29] بل تمثلا وجوديا وارتباطيا بالحياة. إذ أنه ليس خيارا بالنسبة لأفراد هذه الطبقة عموما بل هو ضرورة وجودية مستعجلة تضمن البقاء في الإطار الشرعي أو القانوني، وعليه فإن كل تهديد بإيقاف العمل يعتبر تهديدا بإيقاف الحياة.

هكذا اتسم شعور عمال البناء وشعور أبناء طبقتهم، في إطار توصيف البراديغم الماركسي، لطبقة البروليتاريا في المجتمع. حيث يفرض الحاضر نفسه كالحقيقة الوحيدة التي تستدعي التدبر،

[26]Gilles Deleuze et la psychanalyse, http://psy-enfant.fr/gilles-deleuze-et-la-psychanalyse/, consulté le 17/05/20

[27] Rosende Remuinan, Simon, Lecture de la "théorie de la pratique" de Pierre Bourdieu, lien : https://matheo.uliege.be/bitstream/2268.2/6676/4/TFE_Rosende%20Simon.pdf, Consulté le 17/05/2020.

[28] سفيان جاب الله، ورقة حول احتجاجات 2018، الحق في الماء، المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية.

[29]La meme source numéro ‘18’.

والحاضر وقتها (قبل الحجر) هو حاضرهم الأبدي، عمل روتيني لسداد ديون وضمان البقاء، لكن لا يخفى على أحد أن حاضرهم قد اتسم بالحيرة والتوجّس من المستقبل بعد تخمة التحذيرات وهيستيريا الخوف التي عايشتها البلاد كلّها. ولذلك عمد جلّ الناس إلى العمل حتى آخر يوم قبل الإعلان عن الحجر، قصد تحصيل ما يمكن تحصيله تحضيرا لقادم ينبئ بالسوء وهو ما سنراه في الفقرة الموالية.

عمال البناء في الحجر:

بعد تبين حال الفئة المعنية بهذا البحث قبل إعلان الحجر الصحي من خلال الشهادات التي يؤكد أصحابها أنهم وزملائهم قد عملوا إلى غاية يوم 20 مارس 2020، تاريخ الإعلان عن الحجر الصحي الذي سينطلق فعليا يوم 22 مارس 2020، سنجد في الشهادة التالية ملخّصا لما عاشه المستجوب وزملاؤه من ليلة سماع الإعلان، وذلك كما ذكرنا سابقا عبر أسئلة نصف موجهة وبعد اتصالات عديدة:

"كيف سمعنا بالحجْرْ ودارتْ التليفونات وقّلكْ مثمّاشْ خدمة ديراكت حضّرتْ روحي باش نروّحْ منْ غدوة الصّباحْ قبل ما يتقصْ الّنقلْ، لكنْ فما صحابي نعرفهمْ بقاوْ يستّنوا في الفلوسْ حّتى يخّلصوهمْ، بطبيعتو وقتها راسْ شهرْ وحدْ ما كان قاري حسابو، يخدموا مع (ش.إ)، ياخي مخلصهمشْ وقتها، خلصْهمْ هالّنهارينْ (الأسبوع الثاني من شهر ماي 2020)، أما البريمْ تع عمناولْ لتوْ ما صبّو. يا كهوْ عادْ تراصّتلهم محصورين غادي لي مروحْ مرسكي في كميونْ خضرة بين الصنادقْ ولي مروحْ تقول "حارقْ"، الأسوام بين 50 و 100، يعني لا يزي بطّالْ وزيدْ يعطي خلاصْ نهارينْ ولا ثلاثةْ باشْ يروحْ. كهوْ وصلتْ للدارْ، نلقى الناسْ خايضينْ على الإعاناتْ، أحنا بطبيعتنا معناشْ الحقْ فيهمْ مناشْ مقيدينْ ومعنّاش الحقْ في حتّى كرْني لا أبيضْ لا أصفرْ، وزيدْ حتى كان عطونا مناخذوشْ. بالنسبة للقعدة في الدّار مقعدتشْ، منجمشْ. ناسْ داخلة خارجة برشا حسْ. وزيدْ نقلقْ نتخنقْ، كل يوم نخرجْ مع الأولادْ، لا حجرْ لا شيْ في الحومة نعيشوا عادي. وهانا قاعدينْ نستنوا في الفرجْ منْ عندْ ربي".

ناجي، 28 سنة، الكاف

إذا اعتمدنا المقاربة التفكيكيّة في معالجة نص الشّهادة حسب توجه "داريدا" في مراجعة

النصوص، يمكن النّفاذ إلى العديد من الأحداث والمشاكل سواء التي تتعلّق بصفة مباشرة أو غير مباشرة بالجائحة، كما يمكن أيضا رصد آثار الإجراءات الحكومية مباشرة:

- أزمة التنقّل: نظرا للنمط المعيشي للفئة المدروسة والتموقع الجغرافي لأفرادها، تحوّل أمر الحكومة بمنع التنّقل بين المدن أثناء فترة الحجر إلى ما يشبه "الاعتقال الكبير"[30]. فهم بعيدون عن أهلهم وذويهم في مدن غريبة مع اعتبار سيطرة الخوف حينها على الجميع كما قال "إبيكدات"، كما أنهم لا يستطيعون أن يمكثوا في أماكنهم خاصة مع ظروف الإقامة الصعبة في حظائر الأشغال. هذا ما دفعهم للجوء إلى عمليات "حرقة" داخلية كانت قد انتشرت كثيرا في الأيام الأولى للحجر المباغت بين جميع الطبقات الاجتماعية. هذا دون أن ننسى أزمة العمال التونسيين في ليبيا، حيث يعتبر البناء نشاطا مستقطبا للتونسيين في ليبيا، فقد احتُجز هؤلاء في الجزء الليبي للبوابة ولبثوا ينتظرون أياما حتى أقدموا على اقتحامها بعد أن ضاقوا ذرعا. كالعادة، فقد ظلم قرار الحجر المباغت العديد من التونسيين بعد أن سلبهم حقا دستوريا (حرية التنقل) بحجة الجائحة، وقد تضرر من هذا القرار خاصة العمال الرحل"nomades"[31].
- أزمة التأجير: يبدو الأمر وكأننا نتحدث عن البوتقة العامة لهابرماس "sphère public"لكن بطريقة مختلفة، حيث يُحْشرُ هؤلاء العمال بين رجال الأعمال وزبانيتهم من مقاولين ووسطاء من جهة، والدولة وإجراءاتها من جهة أخرى. فمنذ لوحت الحكومة، عبر رئيسها بالتهديد والوعيد لمن يتخلف من رجال الأعمال عن مساندتها، بادر هؤلاء أيضا للتكتل والتحصن. ويبدو أن ما بادرت إليه الشركة المذكورة من حبس أجور شهر مارس يأتي ضمن هذه التحصينات. فقد كان الوضع مبهما حينها والرؤية غير واضحة، فعمدت إدارة الشركة المذكورة، حسب شهادة المستجوب، إلى إبراز شخصية الرجل الحذر "l'homme prudent"[32]، ويتمثل ذلك في قطع الأجور لتوفير السيولة تحسبا لما ستؤول له الأوضاع، تاركة منظوريها عرضة للأزمات وهم على أبواب الجائحة، في أبرز تجل لمقولة: "الرأس مال جبان".
- أزمة في توجيه المساعدات لمستحقيها: تسببت إجراءات الدولة في صعوبات كبيرة لهذه الفئة التي كنا قد صنفناها ضمن "الطبقة الوسطى الدنيا"، مما جعلها فئة هشة معرضة للفقر والبطالة، وتسمى هذه الوضعية "تهديد هشاشة خارجية" باعتبار أن سببها ظرفي كالجائحة[33] .ولمساندة المتضررين، وعدت الحكومة بمساندة الفئات المتضررة، لكن هذا الوعد واجه عديد العراقيل ونذكر منها:

[30] الاعتقال الكبير: عبارة استعملها ميشال فوكو لوصف الإجراءات الأوروبية لضبط المرضى والمجانين في العصر الكلاسيكي.

[31] أنظر مقال في الإكسبراس الفرنسية:
, publié le 15/06/2006https://www.lexpress.fr/region/la-dr-ocirc-le-de-vie-des-ouvriers-nomades_481479.html

[32] يعتبر آدم سميث، مؤسس علم الاقتصاد الحديث، أن الحذر هو أحد أهم صفات التي يجب أن يتحلى بها رواد الأعمال المعاصرون.

[33] Azzam Mahjoub, « les inégalités, les vulnerabilités à la pauvreté et au chomage », Cahiers FTDES, page 17.

1. الفئة الأولى المعنية بالإعانات "الفقيرة إداريّا" وتسمى أيضا معوزة حسب التعبير الرسمي، هي العائلات المسجلة في قائمات وزارة الشؤون الاجتماعية، والتي طالب عديد الناشطين مرارا بتحيينها ورقمنتها[34]، وتسمى أيضا "أصحاب البطاقات العلاجية المجّانية(AMG1)" وهي ما سمّاها المبحوث بـ"الكرني الأبيض".

يتطلب الحصول على هذه البطاقات منذ الزمن البائد نوعا من التزلف إلى العمد من جهة، ومن جهة أخرى بيروقراطية مقيتة تتضمن إجراءاتها "شهادة فقر"، ويتطلب الحصول عليها أحيانا دفع رشوة أو الاعتماد على "واسطة"، ما جعل الكثيرين يتعففون عن التسجيل حفظا لكرامتهم وتجنبا للإهانة.

2. الفئة الثانية "الهشة أو المعرضة للفقر"، تشترط الحكومة أن تكون من حاملي بطاقات العلاج ذات التعريفة المنخفضة (AMG 2) أو "الكرني الأصفر"، ما يعني ألا تكون منخرطا في أي منظومة رعاية صحية أخرى (AMG1, CNSS, CNRPS)، وشروط أخرى كأن لا يتجاوز دخل رب العائلة مرتين الأجر الأدنى SMIG في عائلة تتضمن خمسة أفراد في أقصى الحالات، ما يعني 806 دينار لخمسة أفراد.

تبدو الشروط لا منطقية تماما، فالمبلغ الأقصى هنا خيالي ولا يمت للواقع بصلة، ناهيك عن الاستثناءات العديدة التي تحرم الكثيرين من الحصول على هذه الإعانات. لتقريب الصورة، فلنفترض عاملا كان قد اشتغل طيلة سنة 2019 بمصنع يندرج ضمن القانون 72 ثم انتهى عقده فلجأ بداية 2020 إلى "المرمّة" كحلّ وقتي ومرحلة انتقاليّة في إطار نضال البقاء، فتصادف ذلك مع الجائحة، كيف يحرمه انخراطه في الصندوق الاجتماعي CNRPS من حقّه في الإعانات. وهذا هو أغلب حال هؤلاء العمال "خدّامة الحزام"، النواة الأولى لعمّال البناء، تارة يعملون بمصنع وتارة أخرى بمقهى أو ورشة مع اللجوء إلى العمل في حظائر البناء عند كلّ فراغ "مهني" أو متى توفّر العمل النّادر عموما في بعض المناطق.

أما بالنسبة للمسجّلين بدفاتر الدولة، فقد أدّى سوء التّدبير الإدارة وغياب التحضير المسبق لظهور "طوابير البؤس وكرنفلات التسول الاجتماعي"[35]، حيث حرمتهم الدولة قسريا من حقوق دستورية (حق العمل وحق التنقل) بحجة الكورونا وبتفويض شعبي من طبقة (أو طبقات) مترفة تتمتع بامتيازات عديدة مثل: امتياز المأوى، العمل عن بعد والأجر المستقر... هذه الامتيازات أعمت هذه الطبقة والسلطة فأدى ذلك لإعادة إنتاج الهيمنة، حسب تعريف بورديو، هيمنة فوقية اجتماعية قد تؤدي إلى مزيد تعميق الطبقية السائدة واللامساواة بين الفئات والجهات في ظل ما يتهدد البلاد من أزمة اقتصادية لم يسبق لها مثيل منذ الاستقلال حسب صندوق النقد الدولي وخبراء

[34] تعهدت وزارة الشؤون الاجتماعية أكثر من مرة بتحيين السجل لكن ذلك لم يتم إلى حد اللحظة. الرابط: http://www.social.gov.tn/index.php?id=7&tx_ttnews[tt_news]=5524&cHash=ccd06dce4109136108286559c1b9a5ec

[35] عنوان مقال خليفة شوشان بجريدة "الصباح" التونسية نشره بتاريخ: 11 أفريل 2020.

تونسيين[36].

- ❖ <u>عدم الالتزام بقواعد الحجر الصحي</u>: "القعدة في الدار مقعدتّش، منجمّش..." هكذا كانت إجابة معظم المستجوبين، فالفكرة لا تطاق شكلا ولا سبيل للخوض فيها. حسب الإحصاء الوطني لسنة 2014[37]، فإن 27.6% من المساكن تتكون من أقل من غرفتين، كما أن 53.8% من المساكن في المناطق غير البلدية هي "دار/حوش عربي"، كما يمثل هذا النوع ربع مساكن البلاد، مما يعني تجمعا لـ4 أو 5 أفراد في "دار عربي". هذا ما عبر عنه ناجي بـ"نقلق ونتخنق"، ولا داعي للحديث عن التباعد الاجتماعي، "فمناعة البشر ضد الاحتكاك الاجتماعي ضعيفة حيث لا يحقق أغلبهم ذواتهم إلا عبر اعتراف الآخر[38]".

تطرقنا فيما سبق إلى ظروف فئة "عمال البناء" قبل وأثناء الجائحة، ووقع التدابير والإجراءات الحكومية عليها وآثارها في تعميق أزمتها. وبالإضافة إلى الامتيازات التي ذكرنا والتي لا تتمتع بها هذه الفئة وشركاؤها أيضا ضمن نفس الطبقة، فإن الحديث عن النجاة من الجائحة والبقاء هو أيضا امتياز مقارنة بالحاجة إلى البقاء، حيث بلغ معدل العدوى الوطني في أقصى حالاته 7 في 100 ألف[39]، وهو ما يجعل مراجعة "الحاجة إلى الأمان الصحي" مع "الحاجة إلى البقاء" نوعا من البذخ حسب هرم "**ماسلو**"[40].

عمال البناء الأجانب (من أصل إفريقي جنوب الصحراء):

"على أمل ألاّ تسيطر الوسيلة (البراغماتية) على الإنسان أبدا، وعلى تطويع الإنسان للإنسان. مما يعني رضوخي أنا للآخر، أتمنى أن أكتشف الإنسان أينما كان". هكذا كتب فرانز فانون في كتابه "بشرة سوداء، أقنعة بيضاء"، حيث دعا إلى مناهضة العبودية والاستعباد، كما دعا إلى التكافل بين الأفارقة، فالخلاص حسب قوله، لا يكون إلا جماعيا. وباعتبارهم يمثلون نسبة هامة من هذه الفئة، أردنا تخصيص هذا الجزء لعمال البناء الأجانب في البلاد. وبعد التنسيق والاتصال كانت هذه شهادة أحدهم[41] :

---

[36]Hakim Ben Hammouda, entretien avec journal 'le point' en 06/05/2020. Lien : https://www.lepoint.fr/afrique/tunisie-la-pire-recession-depuis-l-independance-06-05-2020-2374385_3826.php

[37]RECENSEMENT GÉNÉRAL DE LA POPULATIONET DE L'HABITAT 2014, lien : http://www.ins.tn/sites/default/files/RGPH-national-logem-me%CC%81nage-site6.pdf

[38] عبارة للروائي التونسي ومدير بيت الرواية "كمال الرياحي"، كتبها بمجلة رمان الثقافية بتاريخ 16 أفريل 2020، الرابط: https://rommanmag.com/view/posts/postDetails?id=5680

[39] حسب تصريح وزير الصحة لوكالة تونس أفريقيا للأنباء بتاريخ 12 أفريل 2020. الرابط: https://www.tap.info.tn/fr/Portail-R%C3%A9gions/12557254-tataouine-covid19

[40] رتب "الحاجيات البشرية" ترتيبا تصاعديا حيث وضع الحاجيات الفيزيولوجية، ومنها البقاء، في قاعدة الهرم.

[41]عكس توقعاتي الماقبليّة للشّهادة التّالية كما وردت لسان المبحوث"تيموكو"، فقد أنكر المبحوث أي تمييز داخل حظيرة البناء، بينما أكّده خارجها ضمن حياته اليومية.

"نحن لا نعمل حاليا، زوجتي كان تشتغل معينة منزلية وأنا في حظيرة بناء. لدي ابنة وأعيش حاليا على المساعدات التي تقدمها جمعية خيرية. انتقلنا مع عائلتين ثانيتين للعيش في منزل عائلة رابعة صديقة لنا، فليس لدينا مال كاف لدفع الإيجار. الوضع قبل الحجر كان مقبولا نسبيا فلم نشعر بأي فارق في التعامل بيننا وبين التّونسيين. لا أتوقّع أن يتغير الوضع كثيرا، فوسائل الحماية المفترضة في هذا القطاع لم تكن متوفرة أساسا، فكيف تتوقع أن نعمل بالكمامات؟، لكن يبقى الأمل في الانتقال قريبا، فالوضع سيصبح صعبا قريبا مع فصل الصيف ومع كثرة الأفراد في المنزل".

الشيخ تيموكو، 29 سنة، ساحل العاج.

تميزت فترة الحجر وطوال ذروة الجائحة بتآزر وتكافل مجتمعي مواطني فعال على جميع الأصعدة، وهو ما ساهم في تقليص حدتها نسبيا. كما أن هذا هو الحل الأمثل لمجابهة الوباء حسب المؤرخ "يوفال نوح هراري"[42] والمنظر "جاك أتالي"[43]. لكن هذا الجزء من عمال البناء، المهاجرين، لا يمكن تصنيفهم والتعامل معهم ضمن نفس الفئة مع العمال المحليين لأن وضعهم أسوأ، فهم هنا يصنّفون ضمن الطبقة الفقيرة والمهددة بالفقر الشديد عكس المحليين. لكن لهؤلاء نصيبهم من الإقصاء والتهميش[44] .وحسب الطرح السيكولوجي لفرانز فانون، فإن الأفارقة يعانون من احتقارهم لذواتهم نتيجة لما أقنعهم به الاستعمار من دونية، فخلق ذلك في داخلهم اغترابا بسبب سعيهم الدائم لكي يصبحوا أسيادا ولو في مخيلتهم، وهو ما سيقضي لاحقا على التضامن فيما بينهم، ويضرب "فانون" مثال السود الأميركيين واحتقارهم للسود الأفارقة بسبب فقدانهم الارتباط بجذورهم نتيجة سياسة الأسياد البيض.[45]

إلا أن "الشيخ تيموكو" أكد أنه يتلقى أجرا مساويا لأجر زملائه من التونسيين، وأنكر أي إحساس بالعنصرية داخل الحظيرة، في حين أكده خارجها أثناء حياته اليومية، ويرجع ذلك إلى انصهار العمال، ضمن هذا الحقل المهني في تكوين رأس مال اجتماعي بهدف توفير التضامن، بالاشتراك في نفس الواجهة الاجتماعيّة (العمل في مجال البناء خاصة والمهن الشاقة عموما)، لينتهي ذلك بتوفير أريحيّة نسبيّة (تعاضد مهني) في العمل الشاقّ. والدّليل أن كل ذلك ينتهي بمجرّد الانتهاء

[42] مقال نشره بموقع مجلة فايننشال تايمز بتاريخ 20 مارس 2020. الرابط: https://www.ft.com/content/19d90308-6858-11ea-a3c91fe6fedcca75?sharetype=blocked&fbclid=IwAR1ehf7faF4TkfOaOtLvZKCqr33XotZwLGBJZNn6MRuscQzRc7_Foa9_3Lo

[43] مقال نشره بموقع "espace manager" بتاريخ 04 أفريل 2020. الرابط: https://www.espacemanager.com/predictions-de-jacques-attali-face-au-coronavirus.html

[44] Tunisie, des migrants subsahariens toujours exclus du rêve démocratique, Vincent Geisser. Lien : https://www.cairn.info/revue-migrations-societe-2019-3-page-3.htm

[45] فرانز فانون. كتاب بشرة سوداء وأقنعة بيضاء. الفارابيو منشورات آنيب 2004، ترجمة خليل أحمد خليل.

من العمل، فيعود العمّال للانصهار في المنظومة المجتمعيّة وما تتضمنّه من ممارسات تجاه المهمّشين الأجانب حسب ما وضّح فانون.

كان الهدف من هذ الجزء هو التّأكيد على تقاسم المهاجرين الأجانب المصير مع المحليّين، وذكر الوطأة المضاعفة للجائحة عليهم، نظرا للاغتراب الذي يعيشونه اقتصاديا، والغربة مكانيا وسوسيولوجيا[46] على أمل أن يقع تخصيص مادة كاملة تعنى بهم مستقبلا.

الخـــــاتمة:

ستظلّ الأزمة في البلاد اجتماعية اقتصاديّة خالصة، فبالرغم من التّشريعات المختلفة، سيبقى التّحدي في تجسيد أسطر أجندات المنظمّات الاجتماعيّة الحكوميّة والجمعياتيّة كواقع ملموس تحدّيا قائما ما دامت لم تتوفّر الإرادة السياسيّة الجادّة لتحقيقه.

رغم التّهديدات الصحيّة الخطيرة التي يمثّلها الفيروس، فقد ساهم في إحداث رجّة لدى النخب المهينة حتى تضع في اعتبارها مستقبلا أحوال المقصيّين، بعد أن كشف عجز المنظومة الاجتماعّية على استيعاب الجميع. وترجّح الأرقام الحكوميّة والدوليّة حول الآثار الاقتصادية للوباء أن عدد المهمّشين سيتضاعف في الأيّام القادمة، كما سيتعمّق التفاوت الاجتماعي الاقتصادي بين الطّبقات والجهات.

الارتجال والاعتباطيّة في الإجراءات دفعا بالطبقة المتوسّطة الدنيا إلى أقصى الحدود وربما احتلّت مكان الطّبقة الفقيرة التي صارت بدورها تلاصق الطبقة الأشدّ فقرا، مما يحيل إلى تمّدد الطّبقة الفقيرة وتقلّص الطّبقة المتوسّطة. ولذلك، صارت مراجعة أدوات الحوكمة وأجهزة الدولة حتميّة وذلك حفاظا على السّلم الاجتماعي.

أما على الصعيد التّنظيمي، وجب هيكلة القطاع ومراقبة المشغّلين من خلال تفعيل قوانين مجلّة الشّغل وتكثيف تفقديّات الشّغل حتى يتمّ القطع مع أدوات التّشغيل الهشّ والمؤقّت، حتى يتسنّى ضمان حقوق الشّغيلين، حيث أن واقع عمال البناء هو تمثيل لكل القطاعات المشابهة والتي ترتكز على استغلال اليد العاملة خارج الأطر الرسمية كعمّال الفلاحة وعمّال المصانع، مما يحيل إلى تكثيف وتفعيل الدور النقابي في الإحاطة أكثر بهذه الفئات المنسيّة عمدا، بالإضافة لدور الإعلام في تسليط الضوء وتوجيه الأنظار نحو قضايا هؤلاء.

[46]« La proximité et la distance émotionnelle ne sont plus liées à la distance spatiale, ce qui veut dire que notre voisin peut être pour nous un parfait étranger, alors qu'une personne située à l'autre bout du monde peut être notre partenaire le plus intime ». Hartmut Rosa, Aliénation et Accélération_vers une théorie critique de la modernité tardive, La découverte/Poche, Paris.

صار من الضرورة الملحّة أيضا مراجعة السّجلات الاجتماعيّة، بالإضافة إلى المعايير المجحفة لتحديد الفقر من قبل الدّولة، وجب تحيين هذه السجلات وملاءمتها مع الواقع لضمان فاعليّة البرامج الحكوميّة. أخيرا، تبقى الأزمات فرصة للمراجعة وإعادة التموقع، لكن تبقى الكتابات في هذا الشأن وكل التقارير والدراسات مجرد أرقام وآراء وتحاليل ما لم تتوفر الإرادة السياسية لتبنّيها.

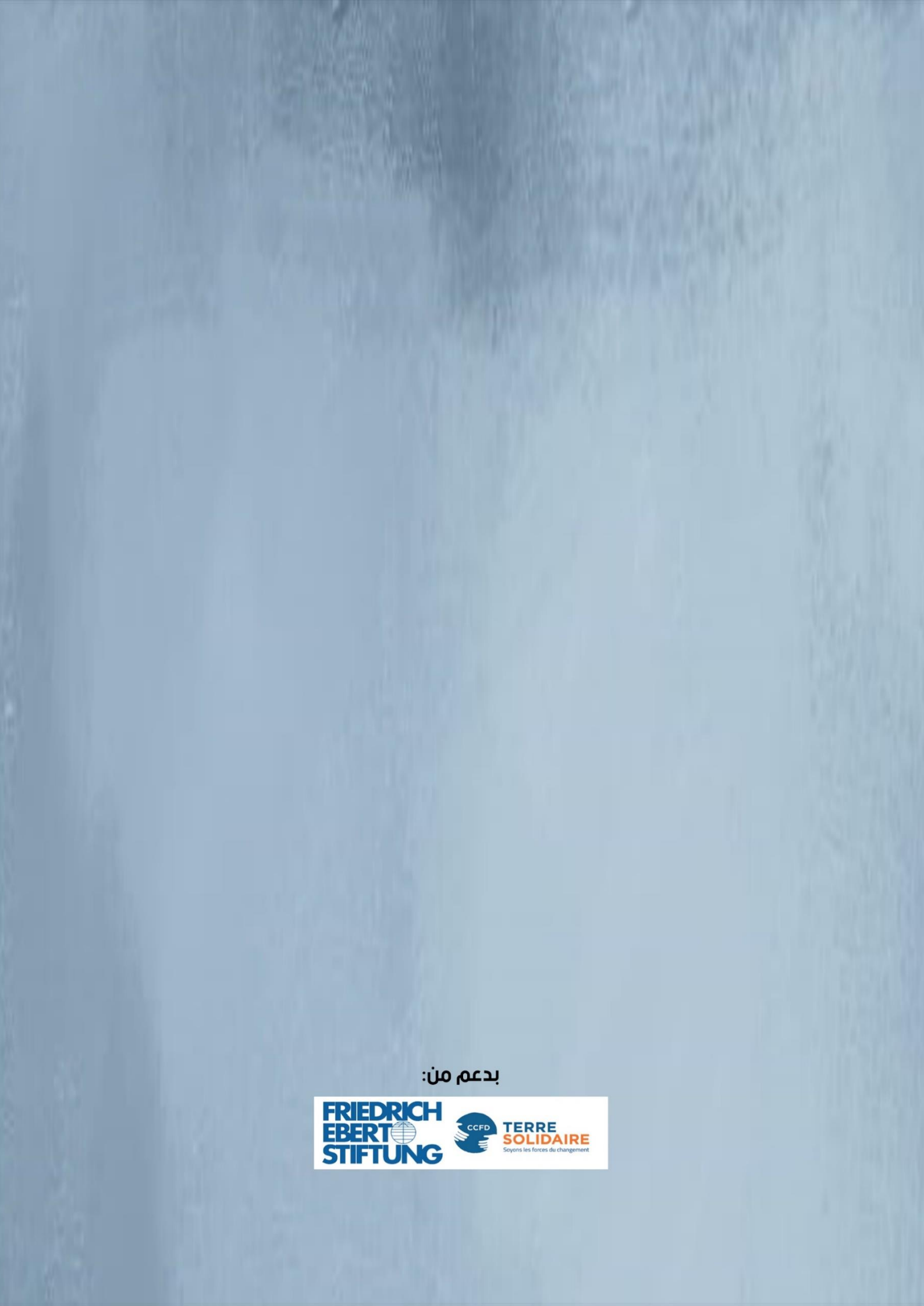

بدعم من:

FRIEDRICH EBERT STIFTUNG

CCFD TERRE SOLIDAIRE
Soyons les forces du changement